

معتقدات وطقوس الولادة في العائلة التقليدية الجزائرية مقاربة انثروبولوجية

أ. براهيم عصام

جامعة تلمسان - الجزائر

الملخص:

يهدف من خلال هذا المقال إلى الكشف عن الدلالات الرمزية والثقافية لمعتقدات وطقوس الولادة في العائلة التقليدية الجزائرية، التي تعكس رؤية المخيال الاجتماعي للجسد الأنثوي المنجب والعافر، عبر ثنائية الخصوبة والعقم، من خلال معتقدات ترسم صورة مشرقة الملامح للمرأة المنجبة في مقابل صورة شديدة القتامة والقسوة للمرأة العقيمة، وطقوس تكشف عن مظاهر التمييز بين الجنسين في العديد من المناسبات العائلية التي يحظى بها الذكر ويتم بموجبها تفضيله على الأنثى.

الكلمات المفتاحية: المعتقدات ؛ الطقوس ؛ العائلة التقليدية ؛ المخيال

الاجتماعي.

Abstract:

Beliefs and birth rites in the traditional Algerian family - Anthropological approach

Our aim in this article is to uncover and reveal the symbolic and cultural connotations of the beliefs and rituals of birth in the traditional Algerian family, which reflect the vision of the social imagination of both the fertile and sterile female body through the duality of fertility and infertility due to beliefs that paint a bright image of the fertile woman in return for a very dark and cruel image of sterile women, And rituals that reveal the manifestations of gender discrimination in many of the family events enjoyed by males and according to which they prefer males to females.

Keywords: Beliefs; Rituals; Traditional Family; Social Imagination

مقدمة

تشكل الولادة حدث رمزي بالغ الأهمية في العائلة التقليدية، باعتبارها كسبا للرهان بالنسبة للزوجين حديثي العهد بالزواج في العائلة، فهي تأكيد لفحولة الزوج وتحقق من خصوبة الزوجة، هذه الخصوبة التي تعبر عن رؤية المجتمع التقليدي للجسد الأنثوي المنجب والعافر، من خلال معتقدات ترسم صورة مشرقة الملامح للمرأة المنجبة "الأم" التي تُمنح مكانة وسلطة اجتماعية باعتبارها الضامنة للاستمرارية

ولإعادة إنتاج النوع الإنساني، في مقابل صورة شديدة القتامة والقسوة للمرأة العقيمة "العاقرة" التي تُمنح الأزدراء والاحتقار باعتبارها كائن بلا قيمة وعاجز تماما عن العطاء، كما أن طقوس الولادة تعكس نمط العلاقة القائمة بين عالم الرجال وعالم النساء، من خلال مظاهر التمييز بين الذكر والأنثى التي تتجلى في طريقة استقبال المولود، والعديد من الممارسات التي يحظى بها الولد ويتم بموجبها تفضيله على الفتاة في العديد من المناسبات والاحتفالات العائلية.

سنحاول من خلال هذا المقال الإجابة على مجموعة أسئلة: كيف يتمثل المعتقد الشعبي المرأة المنجبة والمرأة العاقرة في العائلة التقليدية؟ وماهي أهم طقوس الولادة في العائلة التقليدية؟ وما دلالاتها الرمزية والثقافية في المخيال الاجتماعي؟ قبل الإجابة عن هذه الأسئلة حاولنا التعريف بأهم المصطلحات: المعتقدات، والطقوس، والعائلة التقليدية.

1. تعريف بعض المصطلحات:

1.1. المعتقدات:

يقصد بالمعتقدات تلك الأفكار والأحاسيس التي تحرك الناس إزاء الظواهر الطبيعية والشاذة، كتصورات الناس عن الزلازل والخسوف، وكذلك تصورات الناس عن أسرار بعض الظواهر الفيزيائية والنفسية كالأحلام والنوم والميلاد والولادة والخلاص والموت ورؤية المستقبل¹. كما أنها نسق فكري يظم الاعتقاد والشعائر والطقوس وغيرها، يزود الشعب بأسباب الخلق والحكمة والرشد في الأفعال².

2.1. الطقوس:

يقصد بالطقوس، السلوك - الفردي أو الجماعي - المتكرر، عبر كل زمن وجيل. فهو استنادا إلى ذلك، إعادة خلق وتحيين لماض غامض غالبا، لكنه يأخذ معناه عند الذين يستخدمونه على انه فعل ديني³، كما أن الطقوس والمعتقدات يتبادلان الاعتماد على بعضهما بعضا، فرغم أن الطقس يأتي كنتائج لمعتقد معين فيعمل على خدمته، إلا أن الطقس نفسه ما يلبث حتى يعود إلى التأثير على المعتقد فيزيد من قوته وتماسكه⁴.

3.1. العائلة التقليدية:

يقصد بالعائلة التقليدية تلك العائلة التي لا يزال أعضاؤها خاضعين إلى السلطة الأبوية ويعيشون تحت سقف واحد اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وعمرانيا، محافظين ومحتفظين على عادات وتقاليد ومعتقدات السلف. فالعائلة التقليدية من حيث المفهوم والفاعلية، منظومة بشرية متماسكة تماسكا عضويا داخليا وفق منطق بيولوجي واجتماعي وثقافي وعقائدي، استمد مادته ونظامه بطريقة مباشرة من القرابة⁵.

4.1. المخيال الاجتماعي:

يقصد بالمخيال الاجتماعي مجمل التصورات التي تستثار في أية لحظة بشكل لاواعي وكنوع من رد الفعل⁶، في إطار محدد بنسق رمزي وثقافي. وهو الآلية التي يستعيد بها الأفراد ذواتهم التاريخية بهدف إنتاجها وإعادة بنائها في صورة جديدة قد تظهر في سلوكياتهم الحاضرة أو توقعاتهم المستقبلية⁷. كما أن المخيال بنية أنثروبولوجية موجودة لدى كل الأشخاص وفي كل المجتمعات تتشكل تاريخيا في الذاكرة الجماعية أو في الذهن⁸.

2. معتقدات الخصوبة والعقم في العائلة التقليدية:

يعتبر مجرد الحمل بالنسبة للزوجين حديثي العهد بالزواج في العائلة التقليدية، كسبا لرهان زواجهما، باعتبارها لحظة فارقة في حياة الزوجين فهي لحظة تأكيد فحولة الزوج وتحقق من خصوبة الزوجة، اللذان كثيرا ما حاصرتهم أسئلة الأهل والأقارب حول الحمل⁹، ومع إعلان الحمل الذي يتم مع قدر من التمتع والتردد بين أفراد العائلة، تسارع أم الزوج والزوجة لاتخاذ احتياطات مشددة للحامل تتم بشيء من السرية والتكتم عن المحيطين بها، خوفا من شرور الإنس والجن، حيث يسود الاعتقاد داخل العائلة أن "القرينة" تتربص بالمرأة الحامل وهي جنية شيطانية متخصصة في إجهاض الحوامل وقتل الأجنة والأطفال الرضع، إضافة إلى الخوف من الإصابة بالحسد خاصة من المرأة العاقر، حيث يسود الاعتقاد في المخيال الاجتماعي، أن العاقر محملة بالنوايا السيئة ضد النساء اللاتي يتمتعن بالخصوبة وعلى الأخص الحوامل منهن. لأنها تريد

من شدة غيرتها أن تصبحن معها إلى الموت¹⁰، كما أن المرأة العاقر هي الأكثر تعرضاً للاتهام بأعمال السحر نتيجة الغيرة.

وبذلك تكشف ثنائية الخصوبة والعقم عن رؤية المجتمع التقليدي للجسد الأنثوي المنجب والعاقر، حيث ترتسم في المخيال الاجتماعي صورة مشرقة الملامح للمرأة المنجبة "الأم" التي تُمنح مكانة وسلطة اجتماعية باعتبارها الضامنة للاستمرارية ولإعادة إنتاج النوع الإنساني، في مقابل صورة شديدة القتامة والقسوة للمرأة العقيمة "العاقر" التي تُمنح الازدراء والاحتقار باعتبارها كائن بلا قيمة وعاجز تماما عن العطاء.

1.2. المرأة العاقر:

توصف المرأة العاقر في العائلة التقليدية بالعديد من الصفات الرمزية، فيقال عنها إن «دارها خالية»، لأن «الدار بلا صغار كيما جنان بلا نوار»، كما توصف العاقر بأنها كالشجرة اليابسة بلا ثمر احل الله قطعها، فهي أشبه بالأرض الجذباء القاحلة التي لا تعطي فيهجرها أصحابها كونها أرضا بورا غير قادرة على العطاء. كما يصفها المثل الشعبي «لمرا بلا ولاد كيما الخيمة بلا وتاد» فلا معنى، ولا روح في البيت بدون أولاد يضمنون الاستمرارية والامتداد. كما يستخدم لفظ «ماتضناش ومتخلفش» كدلالة على الاستخلاف في الأرض، فدور المرأة في المخيال الاجتماعي مرتبط بوظيفة الإنجاب وبصورة "الأم" الضامنة للاستمرارية ولإعادة الإنتاج الإنساني، حيث ينظر إليها بالأساس كرحم منجب للجنس والحياة.

وبذلك تكون النظرة إلى المرأة التي لا تنجب من قبل المحيطين بها بين الرثاء والإشفاق والضيق والتبرم بل والنفور أيضا فبعضهم يتعاطف معها وينظر إلى عقمها باعتباره مرضا وابتلاء من الله، ويؤمنون أن لكل داء دواء وآخرون ينظرون إليها على أنها مخلوق ناقص، بل كائن بلا قيمة وعاجز تماما عن العطاء فتعامل المرأة العاقر بازدراء واحتقار، فمن الشائع أن يقال: «لا سعايا لا ظنايا»، و«المرا اللي ما عندهاش صغار مربطها كيف مربط الحمار». ويفسر عقمها على أنه لعنة سماوية، فالعاقر لا بد أنها خرقت بعض القواعد وخرجت عن المعيار وتخطت الحدود بصورة

إرادية أو غير إرادية فكان العقم هو الوصمة التي وصمت بها من جراء فعلتها، فتلاحقها النظرات والهمسات أينما حلت، وأحيانا توجه لها الشتائم التي تذكرها بعقمها وكونها «ميتة حية» وأنها كالشجرة بلا ثمر احل الله قطعها، وغالباً ما تطلق المرأة العاقر، أو يتم الزواج عليها، بل إن الأمر يزداد قسوة عندما ينصح الزاهد في الزواج بأن يتزوج امرأة عاقرا بدلا من الإعراض عن الزواج كلية، فيقال له: «خذ عاقر، واسكن مهاجر، وبيع حاضر بحاضر».

هكذا تلجأ المرأة العاقر لكل الوسائل من أجل حدوث الحمل، بدءاً بالأطباء، ثم القابلات، فالصُّلاح "الأولياء"، وإذا لم يبق في حيلتها حيلة، تلجأ للسحرة والمشعوذين، ولعدد كبير من الطقوس، أبرزها الاستشفاء بالماء، باعتبار الماء عدواً لدودا، وسلاحا ماحقا للجن، كما أنه يُغرق الشرور، كالعكس أو التابعة والسحر. حيث يسود الاعتقاد في المخيال الاجتماعي أن تأخر الإنجاب، سببه رش المرأة بقطرات من الماء الجنائزي، فالماء المحمل بالموت يحمل إليها موتا معنويا، مادامت حياة المرأة في الزواج والإنجاب. ولن يستطيع تخليصها من تلك التأثيرات الشريرة، سوى الماء المقدس حيث يعتقد أن هذه العقدة "العقم" تفكها بركات أولياء الله الصالحين خصوصا إذا تواجد الماء في محيط ضريح الولي، أو ماء سبعة أبار أو سبعة وديان أو سبعة عيون أو سبعة موجات من البحر، إعتقادا في أن الماء فيه بركة أو قوة روحية تخلص من الموانع التي تقف أمام المرأة العاقر.

2.2. المرأة المنجبة:

على العكس من المرأة العاقر يمنح المعتقد الشعبي المرأة المنجبة، مكانة عالية حيث ستحظى بتقدير واسع من جانب الجماعة القرابية، بل إنها تلاقى اهتماماً ورعاية خاصة من كل المحيطين بها، فيتم إعفاؤها من معظم الأنشطة اليومية، وتمنع من رفع الأشياء الثقيلة، والوقوف في المطبخ فترات طويلة، كما تعفى من زيارات الأقارب، خاصة المعروفين بالعين الحاسدة، كما تمنع من مقابلة النساء العقيمات، وتمنع كذلك من زيارة المقابر وحضور المآتم، وتتصح الحامل بالنظر إلى الأشياء الجميلة وخاصة الأطفال حتى يأتي المولود جميلاً، وبعدم النظر إلى الأشياء القبيحة والمفزعة

كالقطة السوداء والكلب الأسود والأفراد المشوهين أو المعاقين، من أجل المحافظة على الحمل وسلامته.

كما تلاقي الحامل رعاية خاصة، حيث تحضر لها أطعمة مخصوصة كالتمر والحليب وزيت الزيتون، وبالإضافة إلى ذلك يتم تلبية كل رغباتها أثناء فترة الوحم، حيث ثمة اعتقاد راسخ في المخيال الاجتماعي أنه إذ لم يتم تلبية رغبة الحامل، فإن ما تشتهي سيظهر على جسد المولود، على شكل "وحمة" وتروى في هذا الصدد العديد من الحكايات الشعبية التي تكشف عن هذا المعتقد والتأثير السيئ لعدم تلبية رغبات الحامل كظهور ثمرة من الخضروات أو الفاكهة أو قطعة لحم... الخ على جسد المولود.

إن الاهتمام برعاية الحامل وتلبية رغباتها في العائلة التقليدية لا يعني - في أغلب الأحيان - اهتماماً بالمرأة في ذاتها ككائن اجتماعي، وإنما يعكس رؤية المجتمع للمرأة كجسد منتج يساهم في إعادة إنتاج النوع الإنساني، كما تعكس هذه الرعاية أهمية الإنجاب وقيمه الاجتماعية، باعتباره معادلة تبادلية وتعويضية بالنسبة للمرأة التي تمنح العائلة أفراداً يسهمون في تقوية البنية الاجتماعية والقرابية، وتدعيم البنى الاقتصادية داخل المجتمع، وتُمنح بذلك "المرأة المنجبة" مكانة وسلطة اجتماعية، تحظى من خلالها بتقدير واسع من جانب الجماعة القرابية، بالإضافة إلى أن زواجها سيدعم ويزداد رسوخاً وثباتاً، خاصة إذا كان المولود ذكراً.

3.2. معتقدات التكهن بجنس الجنين

إذا كان مجرد الحمل كسب للرهان في العائلة التقليدية وخروج المرأة من دائرة العقم، فإن هذا الرهان لن يكتمل إلى بإنجاب ذكر، الذي يعتبر نقطة الالتقاء التي تتحقق فيها مصالح الجميع في العائلة التقليدية، إذ أنها تحقق للمرأة الأمن النفسي ويجد فيها الرجال تجسماً لذهنيتهم الذكورية وتكريساً لامتدادهم المرغوب¹¹. باعتبار أن الذكر في المخيال الاجتماعي حامل اسم العائلة، والعامل على تمديدتها من خلال الإنجاب.

مع بداية الوحم تبدأ الجدة والعجائز المقربات التكهن بجنس الولود، حيث يعتقد أن الوحم يختلف باختلاف الجنين، فإذا كان الجنين ذكراً، فإن المرأة تتوحم على الحمضيات والحار من الطعام أما إذا كانت أنثى فإنها تتوحم على الحلويات والفواكه.

كما يمكن التكهن بجنس الجنين منذ الوقت الذي تشعر فيه المرأة الحامل بالحركة، إذ يعتقد أن الجنين الذكر احكم وأقوى من الجنين الأنثى، ولذا فإن حركته تسبق حركتها، فهو يتحرك في نهاية الشهر الرابع بينما تتأخر حركة الأنثى حتى منتصف الشهر الخامس أو نهايته كما أن الجنين الذكر يكون موضعه في جهة اليمين، أما الأنثى فتكون في جهة اليسار، بين الضلوع مما يجعل بطن المرأة اقل علوا من بطن التي يتوقع منها الولد، الذي يكون حمله خفيفا ، على عكس الأنثى الذي يأتي حملها ثقيلًا. ويقال أن الجنين يحدث أمه إذا كان ذكرا قائلا: «أزياني ياما أزياني وكي تحطيني أشياني»، أي أن حمل الولد يجعل وجه أمه جميلا، أما الأنثى فتقول لأمها: «أشياني ياما أشياني وكي تحطيني أزياني» أي أن حمل الفتاة يغير من وجه الأم بل انه يجعله قبيحا.

تدل هذه المعتقدات على أن تحقق الحبل ليس فعلا بيولوجيا بقدر ما هو ممارسة اجتماعية مثقلة بالتمثلات الثقافية والتصورات الرمزية التي تعكسها الثنائيات المتقابلة التي تطوق الذكورة والأنوثة نحو الحار والبارد، القوي والضعيف، اليمين واليسار، المرتفع والمنخفض، الخفيف والثقيل، الجميل والقبيح. فكل الصفات الايجابية هي من نصيب الذكر وماعاداتها يليق بالإناث، وهو أمر يوحي بما ترسخ في المخيال الاجتماعي من تضاد بين الذكورة والأنوثة، فالإيجابي هو دوما ذكوري، والسلبى هو دوما أنثوي.

لقد كانت المرأة في العائلة التقليدية مهووسة بإنجاب الذكور فهم حاضرها ومستقبلها ومرفاً الأمان المنشود، باعتبار أن الذكر يمنح الأم قيمة اجتماعية ويسهم في استمرار النسب، وكلما كان عدد الذكور كبيرا كلما عززت المرأة مكانتها، لذلك يحتفى بهم، وهو ما عبر عنه المثل الشعبي "بيت رجال ولا بيت مال"، فالمال مهدد بالزوال وهو مرهون بكسب الرجال، كونهم يدعمون العائلة ويثرونها بقوة عملهم، فهم الباقون فيها. وبذلك شكل الذكر في المخيال الاجتماعي حامل اسم العائلة، والعامل على تمديدتها وهو الحامي لها، أما الأنثى فهي تثرى بيوت الغير.

إن تفضيل المولود الذكر على المولود الأنثى بالمجتمعات الذكورية والإعلاء من قيمة الذكر والخط من شأن الأنثى، مقوم أساسي للذهنية الذكورية، كما إنها ظاهرة كونية تشترك فيها جميع الثقافات. لما يُولد ولدٌ في منطقة لوكانيا يُهرق إبريق ماء في الطريق للدلالة على أن المولود الصغير منذور لعبور كل دروب العالم، و لما تولد بنت يهرق إبريق ماء فوق الموقد للدلالة على أنها ستقضي حياتها سجيناً جدران البيت¹²، كما أن الأجراس كانت تدق في البوادي قديماً مدة أقصر أثناء تعميم البنث، وأثناء دفن المرأة، وهذا يعني أن عالم الأصوات كان تقسيمياً جنسياً. كما أن عبارة "أنها بنت" في إفريقيا هي عبارة تدل على التعجب مما حصل (ولم يكن مرغوباً في حصوله) ترن في تجويف أذن الأم كتعاسة مزدوجة: تعاستها هي و تعاسة ابنتها التي بدأت منذ ولادتها. يتم كل شيء كما لو أن البنث لا قيمة لها أو أنها لعنة¹³. كما تكتفي القابلة في العائلة التقليدية الجزائرية بكلمة واحدة تعلن بها عن ميلاد الأنثى مثل "لفتة" بمنطقة تلمسان، وكابويا" بمنطقة قسنطينة و"خفوسة" بمنطقة سعيدة¹⁴. و"حطابة" بمنطقة تبسة.

هكذا شكلت الأنثى خيبة أمل الأم والعائلة، وتلتصق مسؤولية إجابهن بالأم وحدها فهذا هو موقف المجتمع والعائلة من المرأة التي تلد إناثاً فقط، موقف يصنفها بنفس مستوى العاقر، كلتاها جالبتان للشر، مسؤولتان عن ضياع اسم العائلة.

3. طقوس استقبال المولود في العائلة التقليدية:

يغلف جسد المولود منذ لحظة الولادة بالكثير من الطقوس من تعاويذ ورقية وحب. حيث يسود الاعتقاد في العائلة التقليدية أن المولود، يواجه مخاطر جمة عند خروجه للعالم الجديد، ويتم خلال هذه المرحلة حمايته من المؤثرات الخارجية التي تمثل خطراً على حياته وحياة والدته، وبذلك يصبح الحرص على سلامة المولود و"النفساء" وحرصتهما من الجن، والتابعة، والعين الشريرة، واجبا عائلياً يقع على عاتق كل العائلة، وتستغرق هذه المرحلة الحرجة في حياة المولود وأمه على الأقل من سبعة أيام إلى أربعين يوماً.

1.3. طقوس اليوم الأول:

بعد الولادة تقوم القابلة بقطع الحبل السري وربط سرة المولود بخيط احمر يقطع من "حولي" جدته، باعتبار أن الجدة "العجوز المسنة" هي المرأة الوحيدة التي كان لها متنفس في كنف أبنائها الذكور، بحيث كانت تتخذ القرارات بقوة وحرية تامة¹⁵، داخل العائلة التقليدية. كما ترتبط سرة المولود بالعديد من الممارسات، فغالبا ما تقوم إحدى القريبات العمّة أو الخالة بدفن المشيمة في الأرض، وفي مكان يتكتم عنه، وذلك تجنباً لكل ما كانت له علاقة بدم الولادة وبالنجاسة، خشية استعمالها في السحر، فكل جزء ينفصل عن البدن يبقى محتفظاً بقوة حيوية ويمكن له أن يؤثر في حياة الإنسان. بالإضافة إلى ذلك تربط سرة المولود في عنق ناقة أو كبش أو في نخلة حيث يسود الاعتقاد أن هذا الجزء الجزء الحي من جسم الإنسان والمرتبط بالخصوبة كفيل بزيادة القطيع أو إخصاب الأرض كنوع من البركة. كما ترمى سرة المولود أمام المسجد تيمناً وأملاً في أن يكبر الطفل ويكون من أهل المساجد وحفظة القرآن.

كما يحرص الأهل في اليوم الأول من الولادة على إسماع الأذان في الأذن اليمنى والتكبير في الأذن اليسرى للمولود، وتكمن قيمة هذا الطقس القولي (الأذان) في حماية المولود من الأذى وإبعاد الأرواح الشريرة عن الطفل وهو أمر يوضح مدى إيمان المجتمع بالقوة السحرية التي يحتويها الأذان وبسلطة الكلمة وتأثيرها في نفس السامع¹⁶، وعادة ما يستدعى الأهل شخص اسمه "محمد" لإسماع الأذان للمولود فتكون الدعوة إلى التوحيد أول ما يسمعه الوليد فيحرك وجدانه، رغبة في احتواءه وضمه إلى مجموعة انتماء.

2.3. طقوس "السبوع"

بعد مرور أسبوع من الولادة، يتم تحميم المولود وتقوم جدته أو امرأة مسنة بدهن جميع جسمه بزيت الزيتون حتى تتغذى بشرته وتشتد، كما يتم تخضيب يديه ورجليه بالحنة ووضع الكحل على عينيه وحاجبيه وتعطيره، ثم يقيّم المولود بواسطة قطعة طويلة من قماش يلف بها جميع الجسد، مرده "اليوم في حجري والعام الجاي تجيني تجري" كنوع من التفاؤل والتمني بالصحة والعافية للمولود. ثم يتم إلباس

المولود ثيابا جديدة وتوضع له التمام، ثم تدور به إحدى جدتيه أو أمه في أرجاء البيت مرددين " الدار دارنا والأولاد ولادنا وهنا يجي النبي يزورنا " في جو من الفرحة والبهجة والزغاريد.

يمنح المولود في هذا اليوم "السبوع" اسما دالا على خروجه من صيغة المجهول إلى صيغة المعلوم والتعيين، وعلامة على اعتراف الجماعة به كائنا موجودا بينها، وتعد التسمية وسيلة من وسائل الدمج الاجتماعي للوليد، وشاهدا على انتمائه للدين، وعاملا من عوامل تجذيره في ثقافة لها مميزاتها الخاصة، وبذلك يكتسب هوية اجتماعية ودينية وتتطلق حياته الفعلية.

كانت عملية اختيار اسم المولود بالعائلة التقليدية من مهام الأكبر سنا فيها لاسيما الجد والجدة، وغالبا ما ارتبطت التسمية في العائلة التقليدية بتخليد الموتى، حيث يطلق عليهم أسماء الإباء والأجداد والإخوان والأخوات المتوفين، أملا في تخليد ذكراهم في من دخل الدنيا حديثا. كما أن المولود الذكر يتولى تسميته الجد، وفي صورة غيابه يتولى الأب ذلك، أما بالنسبة للمولود الأنثى فتقوم جدتها بتسميتها، أما الأم فلا حق لها في تسمية مولودها وما عليها إلا أن تنتظر دورها عندما تصبح جدة¹⁷. تقوم الجدة بعد تسمية الفتاة، بوضع خيط احمر في معصمها، وتردد الجدة على مسامع الحاضرين "فلانة مسميا على ولد عمها" إي أنها زوجة افتراضية لابن عمها حتى يتم البناء بها، وهي عبارة عن ممارسة تتمثل في نذر البنت منذ ولادتها للزواج من ابن عمها.

تقيم العائلة يوم "السبوع" احتفالية على شرف المولود شكرا لله واستبشارا بقدمه، يدعى إليها الأهل والأقارب، وتعد الولائم وتقدم للعائلة الهدايا والتهانى، خاصة إذا كان المولود ذكر، أين تُذبح فيه العقيقة، وهي طقس ذكوري بما أن العق لغويا هو الشق والقطع، ومعنى ذلك أنها إعلان عن مفارقة المولود للرحم الكنان¹⁸، حيث يسود الاعتقاد في المخيال الجمعي أن لدم العقيقة الطاهر والمقدس قوة سحرية قادرة على حماية المولود وإبعاده عن عالم الجن وتطهيره من نجاسة دم النفاس النجس والخطير والذي يعد مصدر الأمراض والشر، فدم النفاس في تراث شعوب كثيرة دم سلبي يحدث النجاسة وتثير رؤيته الرعب في النفوس لأنه دم مهدد بالموت. أما الدم الذي يراق من

الضحية، فانه دم ايجابي يرمز إلى القوة والحياة والبركة والنماء باعتبار أن الإنسان أسأله باختياره لتطهير المولود ومنحه القوة المنشودة ودمجه في الجماعة¹⁹. إضافة إلى طقس العقيقة والدم الذي يعد رمزيا عنصرا حيويا له قوة تعود بالنفع على المولود، يتمثل الريق مع الدم باعتباره وسيط مائي يتغلغل في جسد المولود لاعتقاد القوم في طاقته السحرية²⁰، وإيمانهم بأثر الريق في حماية المولود من الأذى. وهو فعل رمزي معبر عن توقعات العائلة يقوم به الخال حيث يتفل في فم المولود ويزعم انه سيشبهه وسيشب على الفصاحة والكلام ويقال: "خول الطفل" أي شابه خاله .

من جهة أخرى تتحضر المرأة النفساء إلى زيارة أهلها بعد "السبوع" والبقاء عندهم، لتحاط المرأة النفساء برعاية خاصة باعتبار أن النفساء في المخيال الاجتماعي تقف على عتبة المقدس وتكون منتمية إلى عالمين، فمن الشائع أن يقال: "النفاس قبرها مفتوح" باعتبارها عرضة لأي مرض طارئ يؤدي بحياتها إلى الموت خصوصا أنها منهكة وفي حالة وهن وإعياء من تأثير الولادة على بنية جسمها، لذلك يحرص على سلامتها ولا يرد لها طلب، كما يحرص على تناولها الغذاء الجيد الذي تدخره لها أمها أو حماتها أو أختها ليعطى لها في أيام النفاس، وغالبا ما تبقى النفساء في بيت أهلها إلى الأربعين يوما.

3.3. طقوس الأربعين

يعتبر اليوم الأربعون آخر يوم يُخلق فيه طقس الولادة واحتفالياتها، حيث تنهي الأم "النفساء" ارتباطها بالعالم السماوي حسب ما يعتقد المخيال الاجتماعي حول النفساء، فهي في هذه المرحلة تقف على عتبة المقدس وتكون منتمية إلى عالمين²¹، عالم علوي ملائكي، فأبواب الجنة مفتوحة أمام دعواتها طيلة الأربعين يوما مدة النفاس، وتعلن طقوس الاستحمام عودتها إلى العالم الدنيوي، إلى حالة الأنوثة والخصوبة والى الحياة العملية. كما أن بعد الأربعين يوما يكون المولود قد فتح عيناه على الدنيا وبدأ يتخطى مرحلة الخطر، وبذلك تكون الحلاقة في هذا اليوم طقس عبور للمولود من عالم إلى عالم آخر، ونقله من طور الطبيعة إلى طور الثقافة، وهي محاولة لإخراج المولود من

حالة الضعف والوهن التي ولد عليها ليكسبه الحلق بعض الخصائص التي تساعده على اقتحام الحياة.

من الممارسات المصاحبة لعملية حلق الشعر في العائلة التقليدية، وزن الشعر والتصدق بالذهب أو الفضة بما يساوي وزن الشعر، إضافة إلى دفن الشعر في الأرض حتى لا يتم استعماله في إعداد الوصفات السحرية، وبذلك يجمع طقس الحلاقة بين الجذور الدينية والأسطورية، حيث ارتبط الشعر عند العديد من المجتمعات بمجموعة من الطقوس والممارسات باعتباره من أعضاء جسم الإنسان التي تكمن فيها القوة المقدسة "المانا"²² وبذلك يعتقد أن الشعر مركز قوة في الإنسان وأن مجرد القبض على شعر شخص ما يعني الاستحواذ على كامل قواه ومقدرته.

كما ارتبط طقس الحلاقة في اللاوعي الجمعي الذكوري باعتباره فعل تطهيري ينطوي على جزء خارجي "جسدي" وجزء داخلي "روحي"، كحماية من الخطر الذي يرمز إليه الشعر حين يطلق. وعن الرغبة في انتزاع الطفل من العالم الأنثوي بأسرع وقت ممكن لتطعيمه بالقيم الذكورية²³. كما أن حلق الشعر علامة على الرغبة في تحديد هوية المولود ودمجه في عالم الرجولة، وهي بداية خطوات يقطعها الرجل في سبيل فصل الصبي عن الأم وتخليصه من عالم الأنوثة، كأداة للتعبير عن استحواذ المجتمع الذكوري على أطفاله وسعيه إلى تثبيت الفحولة.

الخاتمة

تكشف معتقدات وطقوس الولادة، كحدث رمزي بالغ الأهمية في العائلة التقليدية، عن مجموعة من الدلالات والتصورات الرمزية التي ترتبط بالنظام الثقافي الذي يتأسس عليه المجتمع، حيث عبرت هذه الدلالات الرمزية عن رؤية المجتمع للمرأة الولود والعافر من خلال ثنائية الخصوبة والعقم، وهي ثنائية انثروبولوجية قديمة ترسخت في المخيال البشري، حيث وجد الإنسان أن أهم دور تقوم به المرأة منذ بدء الخليقة هو الخصوبة، فرأى في المرأة المعافاة الخصيية الحامل رديفاً للأرض الخصبة المثمرة، ورأى أن المقدس، والقوة العظمى للوجود تكمن في صفات الإخصاب

والولادة، واعتبر عقم الأنثى يمثل خطراً على الحقول، فالمرأة العقيم كانت تزدري لدى كثير من الشعوب القديمة، وكانت تشكل خطراً على المحاصيل والخصوبة، وكانت الزوجة العاقر مؤذية للحديقة²⁴.

كما تكشف معتقدات وطقوس الولادة عن التمييز بين الذكورة والأنوثة، وهو ما تعكسه معتقدات التكهن بجنس الجنين، التي تدل على أن تحقق الحبل ليس فعلاً بيولوجياً بقدر ما هو ممارسة اجتماعية مثقلة بالتمثيلات الثقافية والتصورات الرمزية، التي يتم بموجبها الإعلاء من قيمة الذكر والحط من شأن الأنثى، وهي خاصية كونية تشترك فيها جميع الثقافات وترسخت في المخيال البشري باعتبار المولود الذكر أفضل من المولود الأنثى. كما تعكس هذه المعتقدات والطقوس في اللاوعي الجمعي نمط العلاقة القائمة بين عالم الرجال وعالم النساء، باعتبار أن طقوس الولادة "الأضحية والحلاقة" تهدف إلى نقل الطفل من طور الطبيعة إلى طور الثقافة وهي بداية خطوات يقطعها الرجل في سبيل فصل الصبي عن الأم وتخليصه من عالم الأنوثة وغرس قيم الذكورة ودمجه في عالم الرجولة.

التهميش والاحالات:

¹ محمد الجوهري، الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية، ط1، ج1، دار الكتاب، القاهرة، مصر، 1978، ص45.

² علي مكوي، الانثروبولوجيا الطبية دراسات نظرية وبحوث ميدانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1994، ص255.

³ نور الدين طوالي، الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص35-36.

⁴ فراس السواح، الأسطورة والمعنى، منشورات علاء الدين، ط1، دمشق، سوريا، 1977، ص21.

⁵ سعيد محمد، المائدة وهوية انتماء العائلة التقليدية المغربية دراسة انثروبولوجية رمزية، مجلة الفكر المتوسطي، العدد11، جوان 2016، ص12.

- ⁶ محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ترجمة هشام صالح، ط2، دار الساقى، بيروت، لبنان، 1995، ص12
- ⁷ سميرة مناد، الزعامة النسوية في المخيال الاجتماعي، مجلة إنسانيات، عدد: 29-30، تاريخ التصفح الساعة 13:00، يوم 11/03/2017، الرابط: <http://journals.openedition.org/insaniyat/4460>
- محمد أركون، مرجع سابق، ص12 ⁸
- ⁹ فاطمة جراد، العائلة والحياة العائلية بجهة تطاوين، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، تونس 2015، ص381
- ¹⁰ فرنسواز إيرينيه، ذكورة أنوثة فكرة الاختلاف، ترجمة كاميليا صبحي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003، ص239.
- ¹¹ فاطمة جراد، مرجع سابق، ص41.
- ¹² إليزابيث كريمو، وضعية المرأة في العالم، ترجمة حنان قصبى ومحمد الهلالي، دار توبوقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2015، ص14.
- ¹³ المرجع نفسه، ص34.
- ¹⁴ Lacost- dujardin (camille), **Des mère contr les femmes: maternité et patriacat au Maghreb**, Paris: Edition la découverte, 1985, p.57
- ¹⁵ Ibid, p.83
- ¹⁶ آمال قرامي، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية دراسة جندرية، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007، ص72.
- ¹⁷ فاطمة جراد، مرجع سابق، ص383.
- ¹⁸ آمال قرامي، مرجع سابق، ص71.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص
- ²⁰ نفسه، ص76.
- ²¹ خولة الفرشيشي، الجسد في الحمام، ط1، نقوش عربية، تونس، 2017، ص146.
- ²² فراس السواح، دين الإنسان، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 1994، ص187.
- ²³ آمال قرامي، مرجع سابق، ص41.
- ²⁴ ديورانت، ول، قصة الحضارة، ج1، م1، ط3، ترجمة زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة الترجمة والنشر، ص73.